نظرية الحب عند رابعة العدوية

للاستاذ فوزى عرفة

اختصت رابعة بعد توبتها بخصائص تجعلها متميزة عمن سبقها من الصوفية. كانت تدين بدين الحب فى التصوف: يروى لنا صاحب « الروض الفائق فى المواعظ والدقائق » ما يلى: « حكى عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليه درعها وخمارها ثم قالت: إلهى أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك، ثم تقبل على صلاتها فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت: إلهى! هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك ».

وقد بدأ هذا الحب عندها حسيا لأنها لم ترزق بعد من صفاء النفس ورقة الفؤاد ما يجعلها تعرف كيف تخاطب معبودها. والأمر فى هذا يسير على تدرجه الطبيعى فهى إن كانت قد بارحت حياة العشق المادى إلا أن ذكرياتها تشدها إليها برباط — مهما يكن واهيا — إلا أن له تأثيره على نفسها. لا جرم بعد ذلك أن نلمس عندها هذه التمرينات الحسية. إلا أننا مع ذلك لا نوافق قول القائلين إنها « نذرت نفسها لهذا الحب الأسمى وعما قليل ستعلن خطبتها إليه ولعل ذلك أن يقضى فى النهاية إلى الزواج الروحى بينها وبين الله » (راجع ص ٢٦ شهيدة العشق الإلهى الدكتور عبد الرحمن بدوى) فذلك قول يقال فى العلاقات الجسدية بين الزوج وزوجه والعشيق ومعشوقته. ولكن حب رابعة لاريب قد لحقه تطور يسمو به من هذه المرحلة الحسية إلى آفاق الروح الرحبة التى تستشرف بوارق الجمال فإذا بها مأخوذة به متحيرة منه لا تكاد تستشعر تلك العلاقة الحسية التى تتم بين فرد وآخر وإنما تجد من نفسها شوقا إلى الفناء والشعور بالضعف والعجز ومن ثمة حكى صاحب « روض الرياحين فى حكايات الصالحين » عن خادمتها عبده بنت أبى شوال ما يلى « كانت رابعة تصلى

الليل كله فإذا طلع الفجر كنت أسمعها تقول إذا وثبت من مقعدها ذلك وهى فزعة : يا نفسى كم تنامين وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » وليس فى هذا النص شىء يستشف منه الحب الحسى وإنما يلاحظ عليه شدة اللهفة والخوف ولذعة الألم والحسرة وكثرة التهيب حتى يكاد يخالطه النحيب .

وعلى هذا يجمل بنا أن نبين خصائص الحب عند رابعة العدوية حتى تتضح نظريتها فى الحب الإلهى .

أولا : نرى أن رابعة العدوية أخذت الحب كمدخل إلى التصوف ، وهو شىء معقول بالنسبة إلى حياتها الماضية : حياة الملذات والشهوات فهى تأخذ هذا الحب كنسمة تتنسمها لتبحث فيها عن نفسها ذلك لأن جمالها كان قد اشتهر وتمكنها فى الفن كان قد ذاع . هذا فى الظاهر أمام الناس بينما كانت تعانى فى نفسها ذلك القلق الحزين الذى انتهى بها إلى قرارها فى التوبة والانابة فهى تنظر إلى الحب على أنه بديل لهذا الفراق الذى تستشعره عندما تقبل على هذا الحادث الجليل ، والدليل على ذلك هذه الرواية التى نجدها فى « روض الرياحين فى أخبار الصالحين لليافعى » فإنه يقول : « بعض الصالحين قال : خطر لى أن أزور رابعة العدوية رضى الله عنها وأنظر أصادقة هى فى دعواها أم كاذبة فبينما أنا كذلك وإذا بفقراء قد أقبلوا فسألتهم فقالوا : نحن من أبناء التجار فكنا عند رابعة العدوية فقلت كيف ذهبتم إليها ؟ قالوا كنا متهمين بالأكل والشرب فى بلدنا فنقل لنا حسن رابعة العدوية وحسن صوتها وقلنا : لابد أن نروح إليها ونسمع غناءها وننظر إلى حسنها فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها فوصفوا لنا بيتها وذكروا لنا أنها قد تابت فقال أحدنا : إن كان قد فاتنا من صوتها وغنائها فما يفوتنا منظرها وحسنها فغيرنا حليتنا ولبسنا لبس الفقراء وأتينا إلى بابها فطرقنا الباب فلم نشعر إلا وقد خرجت وتمرغت بين أقدامنا وقالت : لقد سعدت بزيارتكم لى فقلنا لها كيف ذلك قالت : عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة فلما طرقتم الباب قالت : إلهى وسيدى بحرمة هؤلاء الأسياد الذين طرقوا الباب إلا ما رددت على بصرى فرد الله عليها بصرها فى الوقت قال : فعند ذلك نظرنا إلى بعض وقلنا : ترون لطف الله بنا لم يفضح سريرتنا فقال الذى أشار إلينا بلبس الفقراء والله لا عدت أقلع هذا اللباس من على وأنا تائب إلى الله عز وجل على يدى رابعة فقلناله : نحن وافقناك على المعصية ونحن أيضا نوافقك على الطاعة والتوبة فتبنا علنا على يديها وخرجنا عن أموالنا جميعا وصرنا فقراء » .

ولا يهمنا من هذه القصة سوى مغزاها ودلالتها فرابعة كانت قد اشتهرت بجمال جسدها وحسن صوتها ، وهذا الاشتهار جعل الناس يأتون إليها من كل فج ليتمتعوا بمنظرها الحسن وصوتها الخلاب الجذاب . ومن ثمة كان عليها أن تلقى هذه الفكرة من عقول من يأتون إليها وفى ذهنهم هذه المعانى السابقة ولا تلغيها إلا بأن تحيى فيهم المعانى النبيلة وتستحث منهم الجوانب الروحية وقد فعلت فى ذلك الشىء الكثير حتى استطاعت أن تصل إلى هدفها .

ثانياً : أن هذا الحب كان درجة من درجاتها إلى سلوك السبيل ، فلما أمعنت فى المدارج لم تهمل أصل توجيهها بل عمقته ووسعته فربطت بين الحب والعبادة ربطا جديدا محكما ، اقول رابعة متمثلة بهذين البيتين الجميلين :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذين البيتين تبدو مسحة منطقية مزجاة فى صورة عاطفية تبين أن الحب عند رابعة العدوية يتطلب أول ما يتطلب — حتى لا يتناقض مع نفسه — أمرين : أولهما الاقلاع عن المعاصى وثانيهما طاعة الله سبحانه وتعالى . وقد صدقت رابعة فى فهم الحب على هذا المعنى الجميل الجديد فالمحب ينبغى أن يوفى حبيبه قدره ويحفظ حدوده ويطيع أوامره ويتجنب نواهيه ومن هنا يصل الحب بالمؤمن إلى أن يتعمق القرآن ويفهمه ويستوحى السنة ويقوم عليها ويستلهم الأعمال الخالدة للتابعين المخلصين وكلما صفت عقيدة رابعة ازداد حبها صفاء وإخلاصا وكلما أمعنت فى العبادة وداومت التقرب خشيت ألا يكون تقربها مقبولا ولا عملها صالحا . وكانت تواصل سؤالها فتقول عندما يأتى النهار « إلهى ! هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك » .

هكذا كان الحب أول مدخل تدخل به رابعة إلى التصوف وآخر مدخل تدخل فيه إلى التذوق فهو الأول والآخر والبداية والنهاية والنبضة والرجفة والمحيا والممات وهو الذى دعاها إلى مواصلة التقرب إلى الحبيب بالصلاة والعبادة حتى أشفق عليها المشفقون . يصفها صاحب الطبقات الكبرى فيقول : كانت رضى الله عنها كثيرة

البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا وكانت تقول : استغفارنا يحتاج إلى استغفار وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول مالى حاجة بالدنيا وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها شن بال تكاد تسقط إذا مشت وكان كفنها ما زال موضوعا أمامها وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها وسمعت رضى الله عنها سفيان يقول : واحزناه فقالت له : واقلة حزناه ولو كنت حزينا ما هناك العيش ، وهكذا صح فى رابعة وصف ذوى الإيمان الساطع الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » .

ثالثا : أنها بدأت تنظر إلى الحب من جانبين : فجعلت حبا للهوى وحبا لذات الحب واعترفت بأنها تحب الله سبحانه وتعالى هذين الحبين فقالت :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهـــل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له ... فلست أرى الكون حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وكان هذا التعبير الذى جعلها تفصل فى الحب لله بين نوعين : حب لأجل نعمه وأفضاله وحب لذات الألوهية نوعا من الاختصاص الذى وضح عند رابعة العدوية فجعلها صاحبة هذه الدعوة فى الحب والقوامة عليها حتى كاد الدارسون يجعلونها صاحبة هذه الدعوى ويحاولون أن يرجعوها من ثمة إلى جملة مصادر مسيحية أو هندية مهملين — لجورهم — خصائص الدعوة الاسلامية لهذا الموضوع .

رابعا : أن ذلك الحب الذى استشرفته رابعة وغطى عليها سمعها وبصرها لم يكن بفضل منها هى وإنما كان بفضل من الله ومنة وفى هذا نرى أن رابعة تخالف صوفية زمانها فى غلبة الهبة عليها لا الكسب وحسبنا أن نوضح هذه النقطة فيما يلى :

غلب على الصوفية فى عصر رابعة العدوية الزهد والخوف من الله سبحانه وتعالى وكان الحسن البصرى ممثلا لهذا الزهد الخائف وقد تبعه الكثيرون ممن رأوا فى إقبال المسلمين على الملذات نذيرا بالسوء فاعتصموا بالمساجد واعتزلوا العالم وخلوا إلى أنفسهم يحاسبونها حسابا عسيرا وأطالوا التأمل والتفكر فى هذا الكون البديع وأدركوا حقيقة وجودهم وتطلعوا إلى اليوم الذى يتخلصون فيه من هذا الامتحان والابتلاء الذى يعانونه فى الحياة الدنيا وقد رأوا أن الإنسان يستطيع أن يتجنب الشر وذلك بمجهوده الشخصى وبدأ به وعمله ، أما هذا الدأب وطول الممارسة فقد

يفضى الإنسان إلى نوع من المواجهة التى يهبها الله لعباده فجعلوا هذه المواهب مجلوبة بعد العبادة وكثرة التقوى .

أما رابعة فقد خالفتهم فى أنها جعلت بدايتها مبنية على المواهب لا المكاسب فالله سبحانه وتعالى هو الذى هداها وهو الذى وفقها لأن تدرك نعمه وتذوق أفضاله ومن ثمة قالت :

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وروى القشيرى فى رسالته : قال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى . فلو تبت هل يتوب على ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لتبت ، فهى كانت لا تثق فى قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن الذنوب بل كان لابد لها من رضا الله أو بهبة منه سبحانه ولهذا كانت تقول : « أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى . أستغفر الله » وكانت تقول : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه » وكانت تنشد :

كم بدت منة وكم لك عندى من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت براح أنت منى بمكن فى السواد
إن تكن راضيا على فإنى يا منى القلب قد بدا إسعادى

هكذا يمكن لنا أن نلخص خصائص الحب عند رابعة العدوية ، فقد كان مدخلا لتصوفها كما كان درجة من درجاتها إلى سلوك السبيل وفرقت فيه بين نوعين من الحب : حب الهوى والحب لذات الحب وأخيراً جاءها هذا الحب هبة من الله وفضلا لا كسبا واجتهادا ثم اختلط معها الحب بالعبادة واستذكار الموت وكثرة البكاء ولهذا لا يمكن لنا أن نجارى قول القائلين إن حب رابعة كان حباً حسياً أو أن محبوبها تخيلته شخصا فإن حبها تطور معها حتى أصبح يحمل معنى أشد عمقا وأكثر أصالة من مثل هذه الدائرة الضيقة التى يحاول البعض أن يدخلوه فيها ؟ .